

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الإمتاز وهما:

١ - الدور المكي، ثلاث عشرة سنة تقريباً.

٢ - الدور المدني، عشر سنوات كاملة.

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها، ويظهر ذلك جلياً بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال الدورين.

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى ثلاث مراحل:

١ - مرحلة الدعوة السرية، ثلاث سنين.

٢ - مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر

السنة العاشرة.

٣ - مرحلة الدعوة خارج مكة، وفشوها فيهم، من أواخر السنة العاشرة من النبوة

إلى هجرته ﷺ إلى المدينة.

أما مراحل الدور المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه.

المرحلة الأولى جهاد الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة، والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها. فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلها المصائب والكوارث، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجيء أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على أصدق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الله الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي^(١) وابن عمه علي ابن أبي طالب - وكان صبياً يعيش في كفالة الرسول - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة^(٢).

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلاً مألفاً محبباً سهلاً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل

(١) كان قد أسر ورق، فملكته خديجة، ووهبته لرسول الله ﷺ، وجاءه أبوه وعمه لذهبا به إلى قومه وعشيرته، فاختر عليها رسول الله ﷺ، فتنبأه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال: زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فأبطل النبي.

(٢) رحمة للعالمين ١/٥٠.

يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان ، وطلحة بن عبيدالله التيمي . فكان هؤلاء النفر الثانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطلبة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة وعبدالله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوي ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت وعبدالله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً . وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به .

أسلم هؤلاء سراً ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً ؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تتابع وحمى نزوله بعد نزول أوأانا المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلاصة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلوينها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنها رؤى عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك .

سيرة

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، لقوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ [٤٠ : ٥٥] وقال ابن حجر : كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم

انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١/٥٣٠ .

- انظر سيرة ابن هشام ١/٢٤٥ إلى ٢٦٢ .

- نفس المصدر ١/٢٦٢ .

لا ؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة : أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل ، فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه . وقد روى ابن ماجه بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس ؛ وكان ذلك من أول الفريضة (١) .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليه يصلبان مرة ، فكلمها في ذلك ، ولما عرف جليلة الأمر أمرها بالثبات (٢) .

الخبر يبلغ إلى قريش إجمالاً :

يبدو بعد النظر في نواح شتى من الوقائع أن الدعوة - في هذه المرحلة - وإن كانت سرية وفردية ، لكن بلغت أباؤها إلى قريش ، بيد أنها لم تكثرت بها .

قال محمد الغزالي : وترامت هذه الأنبياء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً ، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين ، الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة من ذبوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته (٣) .

★ ★ ★

مرت ثلاث سنين والدعوة لم تنزل سرية وفردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ، ومجاهدة باطلهم ومهاجمة أصنامهم .

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٨٨ .

(٢) ابن هشام ١/٢٤٧ .

(٣) فقه السيرة ص ٧٦ .

المرحلة الثانية الدعوة جهاراً

أول أمر بإظهار الدعوة:

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [٢٦: ٢١٤] والسورة التي وقعت فيها الآية - وهي سورة الشعراء - ذكرت فيها أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، ونجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله.

أرى أن هذا التفصيل إنما جاء به حين أمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والإضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم.

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسول، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة - علاوة ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين.

الدعوة في الأقربين:

وأول ما فعل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أنه دعا بني هاشم فحضروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً. فبادره أبو لهب وقال: وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبابة. واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقيمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: « الحمد لله أحده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تمانون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدأ أو النار أبدأ ». فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به. فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب. فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا (١).

على جبل الصفا:

وبعد ما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته، وهو يبلغ عن ربه، قام يوماً على الصفا فصرخ: يا صباحاه: فاجتمع إليه بطون قريش، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر. وقد روى البخاري طرفاً من هذه القصة عن ابن عباس. قال: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربین ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر! يا بني عدي! لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿ تب تب يدا أبي لهب ﴾ (٢).

وروى مسلم طرفاً آخر من هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربین ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخص. فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها بيلها (٣).

(١) ابن الأثير، فقه السيرة ص ٧٧، ٧٨.

(٢) صحيح البخاري ٧٠٢/٢، ٧٤٣، والرواية مخرجة في صحيح مسلم أيضاً ١١٤/١.

(٣) صحيح مسلم ١١٤/١، صحيح البخاري ٣٨٥/١، ٧٠٢/٢، مشكاة المصابيح ٤٦٠/٢.

هذه النصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلوات بينه وبينهم. وأن عصبية القراة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

الصدع بالحق وردود فعل المشركين:

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ [١٥ : ٩٤] فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات اشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين. انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتاً يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت رزلزلت الجو الهادي، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها.

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفي الألوهية عما سوى الله، ومعنى الإيمان بالرسالة وباليوم الآخر هو الانقياد التام والتفويض المطلق، بحيث لا يبقى لهم خيار في أنفسهم وأموالهم، فضلاً عن غيرهم. ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم وكبرياتهم على العرب، التي كانت بالصيغة الدينية، وامتناعهم عن تنفيذ مرضاتهم أمام مرضاة الله ورسوله، وامتناعهم عن المظالم التي كانوا يفترونها على الأوساط السافلة، وعن السيئات التي كانوا يجترحونها صباح مساء. عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع « المخزي » لا لكرامة وخير ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ [٧٥ : ٥] .

عرفوا كل ذلك جيداً، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل اللقيم البشرية ولكارم الأخلاق، لم يعرفوا له نظيراً ولا مثيلاً خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون؟ تحيروا في ذلك، وحق لهم أن يتحيروا.

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلاً إلا أن يأتوا إلى عمه أبي طالب، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه، ورأوا للإلباس طلبهم لباس الجد والحقيقة أن يقولوا: إن الدعوة إلى ترك آلهتهم، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها، وفيه تسفيه وتضليل لآبائهم الذين كانوا على هذا الدين، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها.

وقد قرئش إلى أبي طالب :

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قرئش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا فإما ان تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جيلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه .

سجس لا تستاري نكف . حجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قرئشاً أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا شهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قرئش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب. فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت فقل، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله وجزه وهزجه وقرئضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لخلوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك .

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه، فقال لهم: أمهلوني حتى أفكر في ذلك، فظل الوليد يفكر ويفكر، حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفاً^(١).

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ١٦) وفي

١ - ابن هشام ١/٢٦٥ . (٢) نفس المصدر ١/٢٧١ . - انظر في ظلال القرآن ٢٩، ١٨٨ .

خلاها صور كيفية تفكيره، فقال: ﴿إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر﴾.

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يير بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره^(١).

والذي تولى كبر ذلك هو أبو لهب، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا وافى الموسم في منازلهم وفي عكاظ ومجنة وذو المجاز، يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب^(٢).

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما رأت قريش أن محمداً ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك. فكروا مرة أخرى، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتي:

١ - السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهية، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [١٥ : ٦] ويصمونهم بالسحر والكذب ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا سحر كذاب﴾ [٣٨ : ٤] وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتئمة ناقمة، وعواطف منفعة هائجة ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ [٦٨ : ٥١] وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه ﴿من الله عليهم من بيننا﴾ [٦ : ٥٣] قال تعالى: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [٦ : ٥٣] وكانوا كما قص الله علينا ﴿إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا

(١) ابن هشام ٢٧١/١.

(٢) روى فعله هذا الترمذي عن يزيد بن رومان و.. عن طارق بن عبدالله المحاري ورواه الإمام أحمد في

مسنده ٤٩٢/٣، ٣٤١/٤.

فكهنين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين ﴿ [٨٣ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣] .

٢ - تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ [٢٥ : ٥] ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ [٢٥ : ٤] وكانوا يقولون ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [١٦ : ١٠٣] وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [٢٥ : ٧] وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ - معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه فقد ذكروا أن النضر ابن الحارث قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بمجنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني ^(١) .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينات ، فكان لا يسمع برجل مال إلى النبي ﷺ إلا سلط عليه واحدة منها ، تطعمه وتسقيه ، وتغني له ، حتى لا يبقى له

(١) ابن هشام ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ ، وتفهم القرآن ٨/٤ ، ٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١١٧ ، ١١٨ .

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه. أما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما المستضعفين منهم - فكان ذلك سهلاً جداً. وأما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهياً وقوراً ذا شخصية فذة، تتعاضمه نفوس الأعداء والأصدقاء، بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف، ولا يجترىء على ائتراف الدنيا والردائل ضده إلا أردال الناس وسفهاؤهم، ومع ذلك كان في منعة أبي طالب، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين، كان معظماً في أصله، معظماً بين الناس، فما يجسر أحد على إخبار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشاً وأقامهم وأقعدهم، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعوة تشوف إلى القضاء على زعامتهم الدينية، وصدارتهم الدينية.

وبدأوا الاعتداءات ضد النبي ﷺ، وعلى رأسهم أبو لهب، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك. وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا، وقد ورد في بعض الروايات أنه - حينما كان على الصفا - أخذ حجراً ليضرب به النبي ﷺ^(١).

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرها بتطبيقها بعنف وشدة، حتى طلقها. ولما مات عبدالله - الابن الثاني لرسول الله ﷺ - استبشر أبو لهب، وهروا إلى رفقاءه يبشرهم بأن محمداً صار أتر^(٢).

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذبه، وقد روى طارق بن عبدالله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمي عقباه^(٣).

وكانت امرأة أبي لهب - أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان - لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابها ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ، ولذلك وصفها القرآن بحالة الخطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في

١ - تفهيم القرآن ٦/٤٩٠.

٢ - روى ذلك الترمذي.

٣ - جامع الترمذي.

٤ - في ظلال القرآن ٣٠/٢٨٢، تفهيم القرآن ٦/٥٢٢.

المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني الشاعرة. ثم قالت:

مذمماً عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأيتك؟ فقال: ما رأيتني، لقد أخذ الله يبصرها عني^(١).

وروى أبو بكر البزار هذه القصة. وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت: «أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق».

كان أبو هب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقاً ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته.

قال ابن إسحاق: كان نفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا هب، والحكم ابن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص^(٢)، فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف! أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق.

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه، فقد روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)^(٣) فضاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي لله وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغني شيئاً، لو كانت لي منعة،

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥، ٣٣٦. (٢) ابن هشام ١/٤١٦. (٣) انظر سيرة ابن هشام ١/٥٤٣. (٤) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣.

قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحاً وبطراً)، ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمي اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط - وعد السابع فلم يحفظه - فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذي عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر (١).

وكان أمّية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سراً ويؤذيمهم (٢).

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافين. وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيا أتبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل. وأبي بن خلف نفسه فت عظماً رميةً ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ (٣).

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم﴾ [٦٨: ١٠: ١١: ١٢: ١٣].

وكان أبو جهل يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالاً بما يفعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئاً يذكر، وفيه نزل: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ إلخ (٤) وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال: يا محمد ألم

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على المصلي قدر أو جيفة ٣٧/١.

(٢) ابن هشام ٣٥٦/١، ٣٥٧.

(٣) نفس المصدر ٣٦١/١، ٣٦٢.

(٤) في ظلال القرآن ٢٩/٢١٢.

أنهك عن هذا، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً. فأنزل ﴿فليدع ناديه﴾^(١) وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه، وهزه، وهو يقول له: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾ فقال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبلتها^(٢).

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهاز، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللوات والعزى، لئن رأيت لأطان على رقبتة ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبتة، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخذقاً من نار وهؤلاء أجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً^(٣).

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي ﷺ مع ما لشخصيته الفذة من وقار وجلال في نفوس العامة والخاصة، ومع ما له من منعة أي طالب أعظم رجل محترم في مكة، أما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما الضعفاء منهم - فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر، ففي نفس الوقت قامت كل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام أنواعاً من التعذيب، ومن لم يكن له قبيلة فأجرت عليهم الأوباش والسادات ألواناً من الاضطهاد، يفزع من ذكرها قلب الخليم.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به^(٤).

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصر من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته^(٥).

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاجته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشاً، فتخشف جلده تخشف الحية^(٦).

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه، وكان أمية

نفس المصدر ٣٠٨/٣٠ - ابن هشام ٣٢٠/١ -
نفس المصدر ٣١٢/٢٩ - رحمة للعالمين ٥٧/١ -
رواه مسلم في صحيحه. - نفس المصدر ٥٨/١، وتلقيح فهم أهل الأثر ص ٦٠.

يشده شداً ثم يضربه بالعصا، وكان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجُه إذا حيت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. فيقول - وهو في ذلك - أحد، أحد، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به، فاشتراه بـغلام أسود، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حيت الرضاء، فيعذبونهم بجرها. ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال: صبراً آل ياسر! فإن موعدكم الجنة، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قلبها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر أحر على صدره أخرى، وبالتفريق أخرى. وقالوا: لا نتركك حتى تسب محمداً، أو تقول: في اللات والعزى خيراً، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء باكياً معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ الآية [١٦: ١٠٦] .

وكان أبو فكيهة - واسمه أفلح - مولى لبني عبد الدار، فكانوا يشدون برجله الحبل، ثم يجرونه على الأرض .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضعفوه مرات عديدة على فهم ملتبهة، ثم وضعوا عليه حجراً؛ حتى لا يستطيع أن يقوم .

وكانت زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن، وكان المشركون يسومونهن

-
- ١ : رحمة للعالمين ٥٧/١، تليح الفهوم ص ٦١، ابن هشام ٣١٧/١، ٣١٨ .
 ٢ : ابن هشام ٣١٩/١، ٣٢٠، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٨٢ وروى بعض ذلك العوفي عن ابن عباس، انظر مختصر السيرة للشيخ عبدالله ص ٩٢ .
 ٣ : رحمة للعالمين ٥٧/١، من إعجاز التنزيل ص ٥٣ .
 ٤ : نفس المصدر ٥٧/١، تليح فهوم أهل الأثر ص ٦٠ .

من العذاب أمثال ما ذكرنا. وأسملت جارية لبني مؤمل - وهم حي من بني عدي - فكان عمر بن الخطاب - وهو يومئذ مشرك - يضربها، حتى إذا مل قال: إني لم أترك إلا ملالة^(١)

وابتاع أبو بكر هذه الجوارى فأعتقهن، كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة^(٢)

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه في حر الرمضاء، ويلبسون بعضاً آخر درعاً من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة^(٣).

وقائمة المعذبين في الله طويلة ومؤلة جداً، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وأذوه.

دار الأرقم:

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولاً أو فعلاً، وأن لا يجتمع بهم إلا سرّاً، لأنه إذا اجتمع بهم علناً فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة، وربما يفضي ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل وقع ذلك فعلاً في السنة الرابعة من النبوة، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سرّاً، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم أهرىق في الإسلام^(٤).

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة الاختفاء، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرا في المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرّاً؛ نظراً لصالحهم وصالح الإسلام، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي على الصفا. وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، فكان أن اتخذها مركزاً لدعوته، واجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من النبوة^(٥).

(١) رحة للعالمين ٥٧/١، ابن هشام ٣١٩/١.

(٢) ابن هشام ٣١٨/١، ٣١٩.

(٣) رحة للعالمين ٥٨/١.

(٤) ابن هشام ٢٦٣/١، مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص ٦٠.

(٥) نفس المصدر الأخير ص ٦١.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل يوماً فيوماً وشهراً شهراً حتى اشتدت وتفاقت في أواسط السنة الخامسة، حتى نبا بهم المقام في مكة، وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الساعة الضنكة الخالكة نزلت سورة الكهف، ردوداً على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص، فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلاً على الله ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمرم مرفقاً﴾ [١٨: ١٦].

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائماً، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر. ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستعكس تماماً، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون - إن لم يؤمنوا - أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين.

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء. وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر، وأن الله لا يزال يبعث من عباده - بين آونة وأخرى - من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه، وأن الأحق يارث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون. ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿للمذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [٣٩: ١٠] وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة. كان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ فيها: إنها أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام^(١).

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٩٢، ٩٣، زاد المعاد ٢٤/١، رحمة للعالمين ٦١/١.

كان رحيل هؤلاء تسلاً في ظلمة الليل - حتى لا تفتن لهم قريش - خرجوا إلى البحر، ويمموا ميناء شعبية، وقبضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفتنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار.

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وهناك جمع كبير من قريش، كان فيه ساداتها وكبرائها، فقام فيهم، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة، إن أوئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تولى به بعضهم بعضاً، من قولهم: ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغيبون ﴾ [٤١ : ٢٦] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب - لا يحيط بروعته وجلالته البيان - تفانوا عما هم فيه، وبقي كل واحد مصغياً إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ: ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ [٥٣ : ٦٢] ثم سجد، لم يتالك أحد نفسه حتى خر ساجداً، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين واستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين.

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفناؤه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها: « تلك الغرائقة العلى، وإن شفاعتهن لترتجى »، جاءوا بهذا الإفك المبين، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب، ويطيلون الدس والافتراء (٣).

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشاً أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا

١) رحمة للعالمين ٦١/١، زاد المعاد ٢٤/١.

٢) روى البخاري قصة السجود مختصراً عن ابن مسعود وابن عباس، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركين ١٤٦/١، وباب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥٤٣/١.

٣) تفهيم القرآن ١٨٨/٥، وإلى هذا التوجيه جنح المحققون في حديث الغرائقة.

دون مكة ساعة من نهار، وعرفوا جلية الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش^(١).

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائريهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بدأ من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدرکوا.

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة^(٢). وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصورفوري^(٣).

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم، فاختروا رجلين جليدين لبيين، وهما: عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معها الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقتة، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يسيروا على النجاشي بإقصاصهم، حضرا إلى النجاشي، وقدا له الهدايا ثم كلماه، فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعدوا، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم، لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقاً أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليردهم إلى قومهم وبلادهم. ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعاً، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان. فقال

(١) نفس المصدر ١٨٨/٥. زاد المعاد ١/٢٤، ٢/٤٤، وابن هشام ١/٣٦٤.

(٢) انظر زاد المعاد ١/٢٤، رحمة للعالمين ١/٦١.

(٣) انظر المصدر الأخير.

لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين - : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوي الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه ، وأماناً به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سداك ، ورجبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه علي . فقرأ عليه صدرأ من ﴿ كهيعص ﴾ ، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبدالله بن ربيعة : والله لآتينهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبدالله بن ربيعة : لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، ولكن أصر عمرو على رأيه .

فلما كان الغد قال للنجاشي : أيها الملك ! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ، ففرعوا ، ولكن أجمعوا على الصدق ، كأننا ما كان ، فلما دخلوا عليه ، وسألهم قال له جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقتة، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة - من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم - والدبر الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردوا عليها هداياها، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني للرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليها ما جاءوا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار^(١).

هذه رواية ابن إسحاق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين^(٢) لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحاق تقريباً، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مرافعة قدمت إلى النجاشي.

أخفقت حيلة المشركين، وفشلت مكيدتهم، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغينتهم إلا في حدود سلطانتهم، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة. رأوا أن التفصي عن هذه «الداهية» لا يمكن إلا بكف رسول الله ﷺ عن دعوته تماماً، وإلا فياعدامه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب في هذا الصدد.

قريش يهددون أبا طالب:

جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا. وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

(١) ابن هشام ملخصاً ١/٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبدالله النجدي ص ٩٦، ٩٧، ٩٨، وفي تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة.

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضعّف عن نصرته، فقال: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(١).

وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفيناً
وأصدع بأمرك ما عليك عضاضة
وأبشر وقر بذاك منك عبوناً^(٢)

فريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله؛ وعرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه جمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذة فك عقله ونصره، واتخذة ولدأ فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تسوموني، أعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونوه. هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال: والله ما أنصفتموني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك^(٣).

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين، لكن يبدو بعد التأمل في القرائن والشواهد أنها كانتا في أواسط السنة السادسة من النبوة، وأن الفصل بين الوفادتين لم يكن إلا يسيراً.

(١) ابن هشام ١/٢٦٥، ٢٦٦.

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٦٨.

(٣) ابن هشام ١/٢٦٦، ٢٦٧.

فكرة الطغاة في إعداء النبي ﷺ

وبعد فشل قريش وخيبتهم في الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم بأشد مما كان قبل ذلك، وخلال هذه الأيام نشأت في طغاتهم فكرة إعدامه ﷺ بطريق أخرى، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هي التي سببت في تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة، وهما: حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

فمن تلك الضراوة أن عتبية بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ «النجم إذا هوى» و«بالذي دنا فتدلى» ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه، إلا أن البراق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، وقد استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتبية مرة في نفر من قريش، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتبية يقول: يا ويل أخي، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني وهو بمكة، وأنا بالشام، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه.

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان.

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل، قال: قال أبو جهل:

يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشم آهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له بمجرد ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو أمنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم، ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ، احتمل أبو جهل

١٠٠ تفهم القرآن ٥٢٣/٦، من الاستيعاب، والإصابة، ودلائل النبوة، والروض الانف، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٣٥.

٢٠٠ نفس المصدر الأخير، ص ١١٣.

لحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه، مرعوباً قد بيست يدها على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهمم بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه^(١).

وبعد ذلك فعل أبو جهل برسول الله ﷺ، ما أدى إلى إسلام حمزة رضي الله عنه وسيأتي.

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة الإعدام تنضح في قلوبهم، روى ابن إسحاق عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، فأخذت انقوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد، ويقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بجمع ردايه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط^(٢). انتهى ملخصاً.

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى

(٢) ابن هشام ١/٢٨٩، ٢٩٠.

(١) ابن هشام ١/٢٩٨ - ٢٩٩.

أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ (١) .
 وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر ، فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من
 عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟ فلهوا
 عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا (٢) .

إسلام حمزة رضي الله عنه :

خلال هذا الجو الملبد بسحاب الظلم والطغيان أضاء برق نور للمقهورين طريقهم ،
 ألا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسلم في أواخر السنة السادسة من
 النبوة ، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا ، فأذاه ونال منه ،
 ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بمحجر في رأسه فشجه ، حتى نزف
 منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة
 لعبدالله بن جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القنص متوشحاً
 قوسه ، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل ، فغضب حمزة - وكان أعز فتى في قريش
 وأشدّه شكيمة - فخرج يسعى ، لم يقف لأحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما
 دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يا مصفر استه ، تشتم ابن أخي وأنا على دينه ؟ ثم
 ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة ، فثار رجال من بني مخزوم - حي أبي جهل - وثار بنو
 هاشم - حي حمزة - فقال : أبو جهل : دعوا أبا عماره ، فبني سببت ابن أخيه سباً
 قبيحاً (٣) .

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبي أن يهان مولاة . ثم شرح الله صدره ،
 فاستمسك بالعروة الوثقى (٤) ، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

وخلال هذا الجو الملبد بسحاب الظلم والطغيان أضاء برق آخر أشد بريقاً وإضاءة

- (١) صحيح البخاري - باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥٤٤/١ .
 (٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ، ص ١١٣ .
 (٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٦٦ ، رحمة للعالمين ٦٨/١ ، ابن هشام ٢٩١/١ ، ٢٩٢ .
 (٤) تدل عليه رواية ذكرها الشيخ عبدالله النجدي في مختصر السيرة ص ١٠١ .

من الأول، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة .
بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه ^(١١). وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى
لإسلامه، فقد أخرج الترمذي عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود
وأنس أن النبي ﷺ قال: « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب
أو بأبي جهل بن هشام » فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه .

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التي رويت في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في
قلبه كان تدريجياً، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به
رضي الله عنه من العواطف والمشاعر .

كان رضي الله عنه معروفاً بمجدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقي المسلمون منه ألوان
الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة، احترامه للتقاليد التي سنّها
الآباء والأجداد، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها، ثم إعجابه بصلافة
المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم، ثم الشكوك التي كانت تساوره - كأبي عاقل -
في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يثور حتى
يجور . قاله محمد الغزالي

وخلاصة الروايات مع الجمع بينها - في إسلامه رضي الله عنه أنه التجأ ليلة إلى المبيت
خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي ﷺ قائم يصلي وقد استفتح
سورة « الحاقة » فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أي في
نفسى - هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقراً: ﴿ إنه لقول رسول كريم، وما هو
بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ [٦٩ : ٤٠ ، ٤١] قال: قلت: كاهن . قال: ﴿ ولا بقول
كاهن . قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ إلى آخر السورة . قال فوقع الإسلام
في قلبي .

- ١ : تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص ١١ .
- ٢ : ستأتي رواية في ذلك .
- ٣ : الترمذي، أبواب المناقب، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ٢/٢٠٩ .
- ٤ : فقه السيرة، ص ٩٢، ٩٣ .
- ٥ : تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء وبجاهد .
لكن في آخره ما يخالف ذلك . انظر ابن هشام ١/٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ويقرب من هذا أيضاً ما أورده
ابن الجوزي عن جابر، وفي آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩ - ١٠ .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، والعصبية التقليدية، والتعاضم بدين الآباء هي غالبية على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقي مجدداً في عمله ضد الإسلام، غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه، يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي^(١)، أو رجل من بني زهرة^(٢)، أو رجل من بني مخزوم^(٣) فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي كنت عليه، قال أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامراً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأثرث، معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يقرئها إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئها القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وسترت فاطمة - أخت عمر - الصحيفة، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليها قال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها عنكم؟ فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: فلعلكم قد صبوتما. فقال له ختنه: يا عمر أرايت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت - وهي غضبي -: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحى، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عنكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ: ﴿طه﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري﴾ فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلوني على محمد.

(١) وهذا على رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام ٣٤٤/١.

(٢) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠، ومختصر سيرة الرسول الشيخ عبد الله بن محمد النجدي ص ١٠٣.

(٣) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٣.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا.

فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر، فقال: وعمر، افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجر، فأخذ بمجامع ثوبه وحائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: أما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم! هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. وأسلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد^(١).

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة، والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفاً وسروراً.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إليّ، وقال: أهلاً وسهلاً، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما حثت به^(٢).

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أي حين أسلمت - إلى خالي - وهو العاصي بن هاشم - فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت^(٣).

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧، ١٠، ١١، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله ص ١٠٢، ١٠٣، ابن

هشام ١/٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) المصدر الأخير ١/٣٤٩، ٣٥٠.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨.

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزي مختصراً، أنه لما أسلم أتى إلى جميل بن معمر الجمحي - وكان أنقل قريش لحديث - فأخبره أنه أسلم، فنأدى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر: - وهو خلفه - كذب، ولكني قد أسلمت، فثاروا إليه، فما زال يقاتلهم ويفاتلونهم حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح، أي أعيا عمر، فقعده، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا^(١).

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله. روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بينما هو - أي عمر - في الدار خائفاً، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، وعليه حلة سيرة وقميص مكفوف بجرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال له: مالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادي، فقال أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ، قال: لا سبيل إليه، فكر الناس^(٢) وفي لفظ، في رواية ابن إسحاق: والله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه^(٣).

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين؛ فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب، لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حزة قبلي بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه وقال في آخره - قلت: - أي حين أسلمت - يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى! والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين، حزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إليّ قريش وإلى حزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسأني رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ^(٤).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر^(٥).

(١) نفس المصدر ص ٨ وابن هشام ٣٤٨/١، ٣٤٩.

(٢) صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ٥٤٥/١.

(٣) ابن هشام ٣٤٩/١.

(٤) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦، ٧.

(٥) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٣.

وعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا بمن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به (١).

وعن عبدالله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر (٢).

يمثل قريش بين يدي الرسول ﷺ :

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما - أخذت السحائب تنقشع، وأفاق المشركون عن سكرهم في إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين، وحاولوا مساومة مع النبي ﷺ بإغداق كل ما هو يمكن أن يكون مطلوباً له؛ ليكفوه عن دعوته. ولم يكن يدري هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دعوته، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً، وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ، يكثررون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة (٣) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقته جماعتهم، وسفهته أحلامهم، وعبت به آهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد اسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٣.

(٢) صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ٥٤٥/١.

(٣) هي المنزلة الرفيعة المهيبة.

الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴿ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزمكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ﷺ، إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فقام مذعوراً، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ، يقول: أنشدك الله والرحم! وذلك مخافة أن يقع النذير، وقام إلى القوم فقال ما قال.

أبو طالب يجمع بني هاشم وبني عبدالمطلب:

تغير مجرى الظروف وتبدلت الأوضاع والأحوال، ولكن أبا طالب لم يزل يتوجس من المشركين خيفة على ابن أخيه، إنه كان ينظر في الحوادث الماضية - إن المشركين هددوه بالمنازلة، ثم حاولوا مساومة ابن أخيه بعمارة بن الوليد ليقتلوه، وإن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بمحجر يرضخه، وإن عقبة بن أبي معيط خنق ابن أخيه بردائه وكاد يقتله، وإن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقتل علي ابن أخيه - كان أبو طالب يتدبر في هذه الحوادث، ويشم منها رائحة شر يرجف له فؤاده، وتأكد عنده أن

(١) ابن هشام ٢٩٣/١، ٢٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٩/٦، ١٦٠، ١٦١.

المشركين عازمون على إخفار ذمته، عازمون على قتل ابن أخيه، وما يغني حمزة أو عمر أو غيرها إن انقض أحد من المشركين على ابن أخيه بغتة.

تأكد ذلك عند أبي طالب، ولم يكن إلا حقاً، فإنهم كانوا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، وإلى هذا الإجماع إشارة في قوله تعالى: ﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾ [٤٣ : ٧٩] فماذا يفعل أبو طالب إذن.

إنه لما رأى تألب قريش على ابن أخيه قام في أهل بيته من بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف، ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم، حمية للجوار العربي، إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش^(١).

(١) ابن هشام ٢٦٩/١، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله بن محمد التجدي ص ١٠٦.

المقاطعة العامة

وقعت أربع حوادث ضخمة - بالنسبة إلى المشركين - خلال أربعة أسابيع، أو في أقل مدة، منها: أسلم حزة، ثم أسلم عمر، ثم رفض محمد ﷺ مساومتهم، ثم تواتق بنو المطلب، وبنو هاشم كلهم مسلمهم وكافرهم، على حياطة محمد ﷺ ومنعه. حار المشركون، وحققت لهم الحيرة، إنهم عرفوا أنهم لو قاموا بقتل محمد ﷺ يسيل وادي مكة دونه بدمائهم، بل ربما يفضي إلى استئصالهم. عرفوا ذلك فانحرفوا إلى ظلم آخر دون القتل، لكن أشد مضاضة عما فعلوا بعد.

ميثاق الظلم والعدوان:

اجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب فتحالفوا، على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهد وميثاق « أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » قال ابن القيم: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نصر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده^(١).

تم هذا الميثاق، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة.

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتد الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا يبعأ إلا بادره فاشتره. حتى بلغهم الجهد والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من

(١) زاد المعاد ٤٦/٢.

الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً - وكانوا - لا يخرجون من الشعب لاشترائه الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الاشتراء .

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحاً إلى عمته خديجة - رضي الله عنها - وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختري، ومكنه من حمل انقمح إلى عمته .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام اناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم .

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب .

نقض صحيفة الميثاق:

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك، وفي المحرم (١) سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق، وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي - وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب - وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقيمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف،

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة ستة أشهر، والصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب. ومن يقول: إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام.

ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال من هو؟ قال: أنا قال: ابغنا ثالثاً. قال قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختری بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم ثم سمي له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكتي، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد - : كذبت، والله لا تشق. فقال: زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب. ما رضينا كتابتها حيث كتبت. قال أبو البختری: صدق زمعة. لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل، هذا أمر قضي بليل، تشاوروا فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. إنما جاءهم لأن الله كان قد اطلع رسوله على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطية وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً رجعتن عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم ». وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله. ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم كما أخبر الله عنهم، ﴿ وإن يروا آية يعرضوا، ويقولوا سحر مستمر ﴾ [٥٤ : ٢] أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفراً إلى كُفْرهم^١.

^١ جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري، باب نزول النبي ﷺ بمكة ٢١٦/١، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ٥٤٨/١، وزاد المعاد ٤٦/٢، وابن هشام ٣٥٠/١، ٣٥١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ورحمة للعالمين ٦٩/١، ٧٠. ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠. ومختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣. وبين هذه المصادر اختلاف يسير، أخذنا ما ترجع عندنا بعد النظر في القرائن.

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصد عن سبيل الله، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لا سيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله، وكسرت صلبه، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به - وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطائه قبل ذلك، فقاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا، وفي لفظ: فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون تركوه؛ حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبي طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم - وهم خمس وعشرون تقريباً - فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما نرى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا

١١ : ابتزه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

عليه، من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم، وفي لفظ أنه قال مخاطباً لأبي طالب: أريدكم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، وفي لفظ آخر قال: يا عم، أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال: وإلى ما تدعوهم؟ قال: أَدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، ولفظ رواية ابن إسحاق: كلمة واحدة تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فلما قال هذه المقالة، توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد؛ ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ص. والقرآن ذي الذكر. بل الذين كفروا في عزة وشقاق. كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص. وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق﴾ [٣٨: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧] ^(١).

(١) ابن هشام ١/٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، تفهيم القرآن ٤/٣١٦، ٣١٧، ٣١٨. مختصر السيرة للشيخ عبد الله

عام الحزن

وفاة أبي طالب:

ألح المرض بأبي طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب (١) سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر (٢). وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفي الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزلوا يكلمها حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ [٩: ١١٣] ونزلت ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ [٢٨: ٥٦] (٣).

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحيطة والمنع، فقد كان الحصن الذي تحتمي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح. ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار (٤).

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه (٥).

(١) تاريخ إسلام للشاه أكبر خان النجيب آبادي ١/١٢٠، وفي المصادر اختلاف كبير في الشهر الذي توفي فيه أبو طالب، وهذا الذي رجحناه إنما رجحناه لأن أكثر المصادر متفقة على أن موته كان بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب، وأن الحصار كان ثلاثة أعوام، وأن بدء الحصار كان ليلة هلال المحرم سنة سبع، وإذن فموته في رجب سنة عشر من النبوة.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبدالله النجدي ص ١١١.

(٣) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ١/٥٤٨.

خديجة إلى رحمة الله:

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، كانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره (١).

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتوازره في أخرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: «آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقني حين كذبني الناس، وأشركني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها، وحرم ولد غيرها» (٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ هذه خديجة، قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب (٣).

تراكم الأحزان:

رقت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه، فقد كانوا تجرأوا عليه، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب، فازداد غمًا على غم، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم ير من يزوي ولم ير ناصرًا، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه.

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ﷺ، اشتدت على أصحابه، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ برك الغماد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدغنة في جواره (٤).

١ - نص على موته في رمضان من تلك السنة ابن الجوزي في التلخيص ص ٧، والعلامة المنصور فوري في رحمة للعالمين ١٦٤/٢ وغيرها.

٢ - رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٨/٦.

٣ - صحيح البخاري. باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ٥٣٩/١.

٤ - صرح الشاه أكبر خان النجيب آبادي بأن هذه الواقعة كانت في هذه السنة انظر تاريخ إسلام ١٢٠/١، والقصة بطولها مروية في ابن هشام ١/٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، وفي صحيح البخاري ١/٥٥٢، ٥٥٣.

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفیه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، ودخل بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك. قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب^(١).

ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سماه رسول الله ﷺ عام الحزن، وبهذا اللقب صار معروفاً في التاريخ.

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديماً، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران ابن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة^(٢).

(١) ابن هشام ٤١٦/١.

(٢) رحمة للعالمين ١٦٥/٢، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠.